ـــين بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر

اختزال نشأة الدولة الصينية وأجهزتها في مجرد الاحتياج لهذه الأشغال يُعدّ تبسيطا مخلاً. وبهذا المنظور، ووفقا لنزعة مركزية أوروبية حديثة، جرى نفي التاريخ عن هذه الحضارة لأنها ثابتة لا تتغير، ولم يُعترف بفلسفتها لأنها غير منتظمة وغير منطقية، ولا اعتُرف بدينها لأنه لا يتفق مع معايير الديانات المتوسطية. وتباينت كذلك الأحكام والتقييمات الصادرة عن أناس كانوا على اتصال وثيق بالواقع الصيني، أو كانوا قد خطوا أولى خطواتهم في دراسته. فعلى سبيل المثال، بينما كان اليسوعيون «يبرّرون» الصينيين، ويرون أنهم كانوا سيعبدون الإله الحق استنادا إلى الدين الطبيعي، كان بايل (Bayle) على عكس هذا يؤكد أن الصينيين ملحدون يؤمنون بالخرافات، شيدوا حضارة متفوقة. بَيْد أن ما يذهل الجميع هو ميْل هذه الحضارة للتنصل من التعلق بدين معيّن فضلاً عن ارتباطها بالوظيفة النفعية للدين، وبالتوليف بين المعتقدات المتباينة.

يعود سانتانجيلو إلى تتبّع التطورات الحضارية التي حصلت في الصين. فقد تحققت أهمّ اكتشافات التاريخ البشري من الورق إلى الطباعة والبارود في الصين، خلال الفترة المتراوحة ما بين سلالتي هان وتانغ، أي بين القرنين الثاني والثامن الميلاديين. أما أوروبا فقد شهدت أعلى معدلات إنتاجها الاقتصادي في أوج عصر الإمبراطورية الرومانية، ولم يحدث أن تخطت هذا المعدل حتى القرن الثامن عشر. وعلى المنوال نفسه، شهدت الصين في الفترة ذاتها معدلات إنتاج عالية جرى تجاوزها فقط في مرحلتين لاحقتين: المرة الأولى حوالي سنة ١٠٠٠م في ظل حكم سلالتي سونغ (٩٦٠-١١٢٧م) وسونغ الجنوبية (١١٢٧-١٢٧٩م)، ثم مرة أخرى أخيرة في منتصف فترة حكم سلالة مينغ تقريبا وفي الفترة اللاحقة. وقد تضاعف عدد السكان نحو سبع مرات ليرتفع من ٦٠ مليونا إلى ٤٠٠ مليون نسمة، وذلك في الفترة الواقعة بين القرن السادس عشر وبداية القرن التاسع عشر. ولهذا السبب أيضاً تتسم فترة حكم السلالتين الأخيرتين، مينغ (١٣٦٨-١٦٤٤م) وتشينغ (١٦٤٤-١٩١١م)، بأهمية بالغة.

قبل العصور الحديثة كانت اتصالات أوروبا حضاريا بالصين شحيحة، وما كان لها دور فاعل في بلورة رؤية واضحة عن ذلك العالم النائي، ولم يحصل اتصال معرفي حقيقي سوى مع المبشّرين اليسوعيين. فقد كانت إيطاليا بلداً قصيًا بالنسبة إلى الصين في حقبة مينغ، وبدأ التعارف بين البلدين عبر المبشّرين. وكما هو معلوم، فقد لعب اليسوعيون دوراً مهمًا للغاية في العلاقات بين العالم الغربي والإمبراطورية الصينية. في هذا السياق، يبرز اسم اليسوعي ماتّيو ريتشي (Matteo Ricci) الذي كان قد وصل إلى ماكاو في عام ١٥٨٢ لينال إذناً بالإقامة بشكل دائم في بكين عام ١٦٠١م. ولم يقتصر دور اليسوعيين على نشر المسيحية والمعارف العلمية الغربية في الصين وحسب، بل أدّوا دورًا مهمًا في الوساطة الثقافية بين الحضارتين. ولنا أن نقرأ ما ورد في وصف إيطاليا في التاريخ الرسمي لسلالة مينغ لنعاين بوضوح المعلومات التي نقلها اليسوعيون

عنها: «لم ترتبط إيطاليا، التي تقع في المحيط الغربي الكبير، بأية علاقات مباشرة مع الصين منذ القدم. وإبان حكم «وانلي» (Wanli) (١٥٧٣-١٦٢٠م) وصل أحد مواطنيها، ماتيو ريتشي، إلى بكين. رسمَ «ريتشي» خريطة للعالم تظهر فيها خمس قارات على ظهر البسيطة. وأولى هذه القارات هي آسيا التي تضمّ ما يزيد عن مئة بلد من بينها الصين؛ والثانية أوروبا وفيها أكثر من سبعين بلداً من بينها إيطاليا؛ والثالثة ليبيا «إفريقيا» وفيها ما يزيد عن مئة بلد؛ والرابعة أمريكا وتحتوي على أراض شاسعة وممتدة، وتنقسم إلى أمريكا الشمالية والجنوبية؛ والقارة الخامسة هي ماجيلانيا «القارة القطبية» وهي القارة الأخيرة على وجه الأرض».

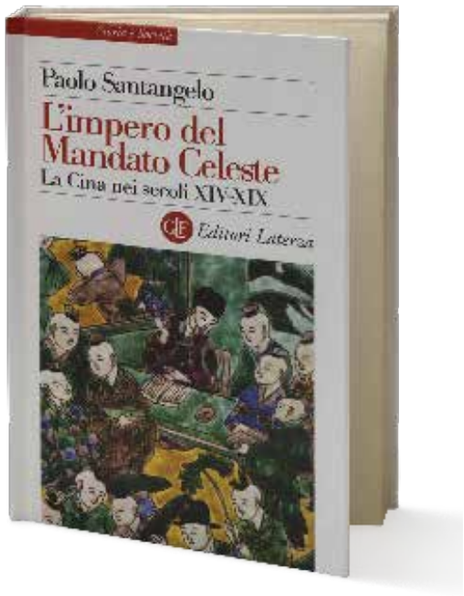

كان التواصل الأوروبي مع الصين، بواسطة اليسوعيين، فاعلا من جانب واحد، وما كان يحوز في الصين اهتماما معتبرًا لكونه لا يشكّل تهديدًا فعلياً. والواقع أن تسرّبَ الوهن الحضاري للصين وفقدان المبادرة العلمية الثقافية مقارنة بالغرب على الساحة العالمية الحديثة، قد حال دون التنبه الفعلي للتهديدات الأوروبية رغم ما كانت تتطلع إليه القوى التجارية الغربية، أو «شياطين ما وراء البحار» كما سماهم الصينيون من هيمنة. لكنّ ذلك لم يمنع شرائح من المتنفّذين والمثقفين الصينيين من التفطن إلى أنّ العالم ما عاد رقعا معزولة بل وحدة متأثرة بعضها ببعض، بعد أن بدأ تضييق الخناق الغربي على الصين وما تبعه من معاينة القوة الغربية الداهمة.

مع تطور الأحداث في القرن التاسع عشر في الإمبراطورية الصينية التي تعاني من أزمات اقتصادية واجتماعية طاحنة، وكان عليها في الوقت نفسه مواجهة اعتداءات متواصلة وجسيمة، وجدت الصين نفسها أمام واقع جديد من التحديات لا عهد لها بها. وضعت الصدمةُ الهائلة الناجمة عن غزو «البرابرة الغربيين» ومعاينة الصينيين للتفوق العسكري والتقني للغرب الطبقةَ الحاكمةَ الصينيةَ على نحو مُلحّ أمام إشكالية كيفية التصدي لهؤلاء الأغراب، وكيفية تقييم ثقافتهم. مع ذلك أعرب جزء من المتأدّبين أو ما يُطلَق عليهم «الموظفون الأنقياء» (تشينغغوان) عن رفضهم الاعتراف بالمشكلة، وعارضوا الوصول لأي تسوية مع الأجانب، واكتفوا بتجاهلهم أو باستنكار «انحطاطهم الأخلاقي». بَيْد أن هذا لم يكن يحلّ المشكلة الحقيقية المتعلقة بالتفوق العسكري الغربي وتهديداته المتصاعدة. لكن الصدمة في الحقيقة كانت مريعة، ولم يقتصر الجدل على من يدعمون مسار الإصلاح، ومن يحمّلون دعاة الإصلاح مسؤولية تردي الأوضاع، بل زاد عليه جدل آخر بين الحداثيين أنفسهم والإصلاحيين. فقد كان دعاة الإصلاح منقسمين إلى فريقين متعارضين: فريق متغرّب يرى الإصلاحات هدفا في حد ذاتها وليست وسيلة، وينظر إلى القيم الغربية على أنها مبادئ حديثة وعالمية جامعة؛ وفريق آخر يُميّز بين جوهرية الحضارة الصينية، وتوظيف العلم والتكنولوجيا الأجنبية. ومع نهاية القرن التاسع عشر برزت ثلاثة تيارات رئيسة: الحداثيون ذوو «النصوص الحديثة» (جينوين) في محاولة لاستيعاب الصين الروح الغربية، والثوريون ذوو «النصوص القديمة» (غوين)، والقوميون. وهي انقسامات شبيهة بما لحق النخبة العربية في مواقفها المتباينة من الغرب.

ما إن حلّ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى رجحت كفة الإصلاحيين على غيرهم، وهم حركة معروفة باسم «المناعة الذاتية» تستلهم أفكارها من المصادر الكنفوشيوسية، والكنفوشيوسية الحديثة، تسعى للتصدي للثورات الداخلية من جهة، وللضغوط المتصاعدة للقوى الغربية واليابان من جهة أخرى. عضدها بعض الساسة والمتأدبين، على غرار «تسينغ غوفان»، و«تسو تسونغتانغ»، و«لي خونغتشانغ»، وسعوا إلى الجمع بين التحديث التقني المؤسسي للبلاد، ونشر القيم الأخلاقية. وقد أولى «فينغ غويفين» في عمله «اقتراح لتبنّي المعرفة الغربية» أهمية خاصة إلى تعلُّم العلوم والرياضيات، وشدّد على دور الإنتاج الصناعي في المجال العسكري، وبدا مدركاً للتفوق الغربي في استغلال الموارد البشرية والمادية، إلا أنه من جهة أخرى أكد على سُمو حكمة التراث الصيني.

الكتاب: إمبراطورية التفويض السماوي.. الصين بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر.

المؤلّف: باولو سانتانجيلو.

الناشر: دار نشر لاتيرسا (روما) «باللغة الإيطالية».

سنة النشر: ٢٠١٤.

عدد الصفحات: ٣٥٥ صفحة.

* باحث إيطالي من أصول مغاربية

إمبراطورية التفويض الـــسماوي.. الص

أمين منار *

تشهد الصين في الحقبة المعاصرة تطورًا لافتًا على المستويين الاقتصادي والاجتماعي، بعد فترة من الركود والانكماش، الأمر الذي دعا العديد من الدارسين المهتمين بالدراسات الحضارية إلى البحث في الأسس العميقة التي تميز الصين والتي تشكّل الدوافع الرئيسة لما يحصل من تحوّل في عمق المجتمع الصيني. إيماناً بأنّه لا سبيل لفهم الصين المُعاصرة، سواء كان هذا على مستوى البعد الجغرافي السياسي، أو على مستوى القوة الاقتصادية، أو على مستوى الهوية الاجتماعية والثقافية بمعزل عن تاريخ «وحدتها الإمبراطورية» السابقة. الأستاذ الإيطالي باولو سانتانجيلو المدرِّس في جامعتي «الأورينتالي» في نابولي و«لاسابيينسا» في روما، أحد المختصين الغربيين المميَّزين في التاريخ الحضاري الصيني، وصاحب المؤلفات الرصينة في المجال، منها «تاريخ الصين» بالتعاون مع ماريو ساباتيني ٢٠٠٥، و«تاريخ الفكر الصيني» ٢٠١٢، إضافة إلى الكتاب الحالي الذي نتولى عرضه «إمبراطورية التفويض السماوي»، الصادر عن دار نشر إيطالية خلال العام الماضي، والمترجَم من قبل مشروع كلمة الإماراتي خلال العام الحالي، بترجمة ناصر إسماعيل ومراجعة عز الدين عناية.

لا شك أنّ كتاب «إمبراطورية التفويض السماوي» بالغ الأهمية من حيث تتبّع جذور النهضة الصينية، لما يتناوله من قضايا في غاية الراهنية مثل إشكالية التحديث، والعلاقة بالغرب، والتعاطي مع الموروث الثقافي والديني، وخوض الإصلاحات بشتى أشكالها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية. بموجب هذه القضايا، إضافة إلى الدور المتنامي للصين في التاريخ العالمي في القرن الحادي والعشرين، يعيد المؤرخ الحضاري باولو سانتانجيلو النظر في مسألة حضور الصين الإمبراطورية على المسرح العالمي وما حازته من أهمية جوهرية في قلب الأحداث التاريخية. فعلى إثر التحولات التي شهدها العصر الحديث أخذت بعض البلدان الأوروبية بزمام المبادرة الحضارية، قامت خلالها بإعادة صياغة النظام الدولي برمّته عبر إعادة «رسم خريطة العالم»، وخلق نماذجها العالمية. لكن الصين في هذا السياق لعبت دورًا بارزًا، ولم تتعرض مكانتها للانحسار وفقدان الفاعلية إلا مع حلول القرن التاسع عشر وفق رأي سانتانجيلو. حيث يرى صاحب كتاب «إمبراطورية التفويض السماوي» أن النقاشات المستجدة حول دور الإمبراطورية الصينية في الاقتصاد العالمي في الفترة السابقة واللاحقة للقرن الخامس عشر قد أسهمت في تجاوز المقاربات التقليدية ذات النزعة المركزية الأوروبية، التي ترى في الثورة الصناعية نتيجة منطقية للتفوق الأوروبي في المناحي الثقافية، والتقنية، والتجارية، وذلك في مقابل آسيا التي تتسم بالجمود، والاستبداد، والاكتظاظ السكاني. مرتئيا سانتانجيلو أن الدور الذي لعبه طلب الاقتصاد الصيني على الفضة في خلق سوق موحَّدة تجمع أوروبا وأمريكا وآسيا منذ القرن السابع عشر وإلى القرن التاسع عشر اعتمادا على تداول «البيزوس» الفضي الإسباني، كان له الفضل في تحقيق الوحدة النقدية الأكثر اتساعاً في عالم ما قبل الحقبة المعاصرة.

ويدعم سانتانجيلو موقفه الرافض لقراءة التاريخ الحضاري من منظور غربي بقوله: سلّط البعض الضوء على عوامل مختلفة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في النظام التقليدي الصيني، يمكن اعتبارها عوامل مثبطة للتطور نحو النظام الرأسمالي. بَيْد أن باحثين آخرين عارضوا هذا الطرح استنادًا إلى أنّ جملة من العوامل المذكورة والمعوقات لم تكن أكثر سلبية من تلك التي وُجِدت في ألمانيا قبل الثورة الصناعية، أو في اليابان خلال حقبة «توكوغاوا». إضافة إلى أنّ بعض التفسيرات الشائعة، مثل رفض الكنفوشيوسية للمذهب التجاري والسيطرة الحكومية المفرطة، تبدو تفسيرات نظرية أكثر منها واقعية إذا ما تأمّلنا مسار التاريخ الصيني.

فقد صوَّرَ المفهومُ التاريخي المهيمن، الذي يرتكز على نظرية ما يسمى بـ«تفويض السماء» (تيانمينغ)، أي ما يشبه نظامًا طبيعيًا شاملاً، الانتقالَ من سلالة حاكمة إلى أخرى وكأنه ميل ثابت لإرساء التوازن الذي قد يختلّ وينهار فيما بعد فيسوق هذا بدوره إلى الاضطراب وفقدان السلطة، وإلى صعود سلالة أخرى. ووفقاً لهذا المفهوم الدوري التعاقبي الذي يقوم على التناوب بين فترات من الانتظام وأخرى من الاضطراب، بات التاريخ مجرد تكرار دوري للمراحل نفسها. أدى هذا إلى أن يبدو المسار التاريخي الصيني على شكل موجات متكررة، وبصورة أكثر جمودًا ربما مما هو عليه في الحقيقة.

كما يعيد سانتانجيلو النظر في المقاربات الغربية الأولى التي شكّلت مرجعية رؤيوية في قراءة التاريخ الحضاري للمجتمع الصيني. حيث منذ الاتصالات المباشرة الأولى مع الصين، شهد العالم الغربي نقاشا رمى أساسًا إلى تأطير الحضارة والتاريخ الصينيين وفهمهما من خلال الأنساق والقوالب التقليدية، ومن ثَمَّ إلى إخضاع سمات هذه الحضارة للتقييم والمقارنة. وقد أثّرت الرؤية التاريخية الغالبة في الصين التقليدية -التي يمكن أن نصفها بأنّها دورية سلالية، تميل إلى إبراز عناصر الاستمرارية على حساب التحولات الكبرى الاقتصادية، والاجتماعية، والإيديولوجية، والمؤسسية، والثقافية- تأثيرًا عميقاً على الأوروبيين الأوائل الذين اهتموا بالدراسة المنهجية للحضارة الصينية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ونقصد هنا اليسوعيين الغربيين الذين كان لهم قصب السبق في الاتصال بالصين على مستوى حضاري وديني وثقافي. فقد أدرك هؤلاء عنصر الاستمرارية الاجتماعية والمؤسسية الذي يرتكز على مفهوم عقلاني للنظام الطبيعي، وقدّموا الصين على هذا النحو كنموذج لأوروبا التي كانت تعاني من تغيرات واضطرابات اجتماعية وسياسية متواصلة.

وفي هذا السياق، أضحت آسيا، والصين على نحو خاص، تمثّل كلتاهما نفياً للتاريخ نفسه. فقد حشر رانكه (Ranke) الصينيين ضمن أعراق «الركود الأبدي»، بينما ذهب شبنغلر (Spengler) إلى أن تاريخ الصين قد تكلّس وتحجّر. ونطالع آراء مثيلة لدى توينبي (Toynbee)، الذي رأى في القرن الرابع عشر نهاية للحيوية الصينية، وفيبر (Weber) الذي جعل من صفة الثبات التي تتّسم بها الحضارة الصينية نقيضا للديناميكية والعقلانية الأوروبية الحديثة. واستوحى ماركس أيضاً وبلا شك رؤاه من مفهوم هيغل عن جمود آسيا وتخلّفها. وتعود نظريته في ما يُعرَف بنَمط الإنتاج الآسيوي إلى هذا التوجه الغربي العام في تقييم الشرق. ووفقاً لتلك النظرية، التي بات فيها المجتمع الآسيوي يتّسم بسلطة مستبدة للدولة تسيطر بموجبها على مجموعة من القرى المنعزلة والمكتفية ذاتيًا بصفتها المالك الأوحد للأراضي، عمل كارل أوغست فيتفوجل (K. A. Wittfogel) على تطوير نظريته حول الحضارات «النهرية» والسلطة الشمولية. فقد أدت الحاجة إلى تشييد أعمال معقدة للريّ، تُعدّ ضرورية للإنتاج الزراعي لا سيما في البلدان الآسيوية، إلى تكوين جهاز بيروقراطي ضخم عمل على تركيز السلطة الاقتصادية والسياسية، وحرمان بقية المجتمع من كافة الحريات. وعلى العموم ترتكز نظرية نمط الإنتاج الآسيوي، التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً برؤية مركزية أوروبية للمسار التاريخي، على تصور نمطي للتاريخ الصيني. إذ يرى سانتانجيلو أنّ الأمر هنا لا يتعلق بإنكار أهمية الأشغال النهرية في التطور الاقتصادي والاجتماعي للإمبراطورية الصينية، إلا أن